قهوة سوداء ثقيلة خالية من السكّر

بسمة النسور

بعد أن أمضيتُ أسبوعاً من الاعتكاف، وحيداً داخل جدران منزلي، اكتشفتُ أنّ صحبتي ليست مُمتعةً على الإطلاق، وبأنّني شخصٌ ممِلٌّ لا تبعث مجالستُه إلا على مزيد من الكآبة. كنتُ زعمت للزملاء في العمل أنّني سوف أقضي إجازتي السنوية في تركيا. نصحني أحدهم بناءً على تجربته أن لا أفعل، لأنّ الغلاء الفاحش قد اكتسح هذا البلد، فلم يعُد وُجهةً ملائمة لأصحاب الدخل المتوسّط من أمثالي، إضافة إلى أنّ الاتراك يُمارسون عنصريةً ضدّ السيّاح العرب. استغربت ذلك لأنّي اعتدت زيارة إسطنبول بميزانية مقبولة، حتّى إنّني كنت أبتاع ملابسي من شارع الاستقلال عند ساحة تقسيم، وألاحظ أنّ الأسعار أقلّ بكثير من عمّان، ولم يحدُث أبداً أن تعرّضت لأيّ سلوك عنصري هناك. لم أعلّق بكلمة، لأنّي اعتدت منذ زمن طويل الاحتفاظ برأيي لنفسي، لم تعُد تعنيني مجادلة أيّ كان في أمر مهما كان بديهياً، أكتفي بهزّ رأسي باستسلام، علاوة على أنّ الأمر لم يُشكّل أي فرق عندي، ذلك أنّني لا أنوي السفر أصلاً، مُجرّد كذبة بيضاء أطلقتها كي لا يُدرك أيٌّ منهم مقدار كآبتي، ولإدراكي أنّ لا أحدَ يهتمّ بما يدور في حياتي. في الحقيقة، لا شيء يدور في حياتي الكئيبة المملّة. أذهب إلى عملي يومياً متثاقلاً ضجراً، فاقداً الإحساس بالحماسة لأيّ شيء، عاجزاً عن الفرح، غير راغبٍ في التواصل مع أيّ كان، حتّى إنّ أصدقائي لا يتجاوزن عدد أصابع اليد الواحدة. وأعترف أنّ رُؤيتهم لم تعُد تسعدني مثل السابق، يبدو أنّهم أدركوا ذلك، فكفّوا عن مبادراتهم نحوي. لم يُزعجني تباعدهم، بل أحسست بشيء من الارتياح، لأنّ التعب قد نال مني من فرط المجاملات الكاذبة، والثرثرة الفارغة، في الشؤون السياسية، إذ يُنظّر الجميع ويَدّعون فهم المرحلة السوريالية التي نعيشها.

حوارات ثقيلة أشارك فيها بصفة مستمع، لا لأنّي أتقن الإصغاء، بل لأنّني رجلٌ كسول ضجر ويائس من كلّ شي. ذهبت للتسوّق كي لا أضطر إلى مغادرة المنزل، ابتعت ما احتاج إليه كلّه، من خضروات وفواكه ولحوم وبقالة، لم أنسَ إحضار بعض الحلويات والمُكسّرات والعصائر والسجائر، والقهوة التي أشربها طوال الوقت، ما يُسبّب لي الأرق معظم الليالي، حتّى إنّني اشتريت بعض الحلوى التركية للزملاء، كي لا يساورهم الشكّ في حكاية سفري المزعومة، وكما قلت لكم لم يكن أسبوعاً ممتعاً على الإطلاق، رغم مواظبتي على الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، والأغاني القديمة التي أُحبّ، ورغم مشاهداتي عدداً كبيراً من الأفلام الدرامية والوثائقية والمسلسلات التي تتحدّث عن قصص المجرمين المُتسلسلين، ومحاولتي قراءةَ روايةٍ لكاتب غزير الإنتاج، تضمّ فائضاً من الثرثرة أضعفت النصّ، ودفعت بي إلى إلقائها جانباً، قبل أن أصل إلى مُنتصفها، ورغم استماعي لكثير من المحاضرات الفلسفية في «يوتيوب»، ولجوئي إلى المطبخ لإعداد بعض الأطباق التي أُحبّ، كما خصّصت وقتاً للتأمّل في الحياة، التي فقدَت معناها عندي.

فكّرت أكثر من مرّة في فكّ الحصار عن نفسي، لكنّي التزمت وعدي أن أمضي في اعتكافي رغم كلّ شيء. وعندما انتهى أسبوع إقامتي الجبرية، قرّرت زيارة أحد أصدقائي القدامى، المعروف باكتراثه بالآخرين وتعاطفه مع أحزانهم، وقد عزمتُ على الفضفضة أمامه بما يعتمل في داخلي من أفكار سوداوية كئيبة، لأنّ الصمت التهمني وأرهق روحي. رحّب بالمكالمة رغم استغرابه مبادرتي. وصلت بيته، بدا متعباً حزيناً حين سألته كيفك؟ قال في خطوة وجدتها استباقية، «ضجر وعايف حالي.. معتزل في بيتي، وقررت إقفال بابي أمام كلّ من يأتيني شاكياً باكياً.. مش ناقصني طاقة سلبيه يا زلمه». ابتلعت ريقي، تنهّدت عميقاً، وقلت باستسلام معك حقّ.

سألني كيف قهوتك؟... قلت: سوداء ثقيلة خالية من السكّر.

عن ردّ إيران وحزب الله على إسرائيل

وائل نجم

خرقت إسرائيل قواعد الاشتباك، المعمول بها اعتباراً من 8 أكتوبر / تشرين الأول 2023 في لبنان وفي إيران، عندما اغارت الطائرات الإسرائيلية على مبنىً سكنيّ في الضاحية الجنوبية لبيروت، فقتلت فيه مدنيين، إضافة إلى القيادي العسكري في حزب الله، فؤاد شكر. وأيضاً، عندما اغتالت في طهران رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنيّة، من دون أن تُعلن ذلك أو أن تتبنّاه رسمياً.

توعّد حزب الله بالردّ على ضرب الضاحية، واغتيال أحد قادته العسكريين، لكنّه لم يكشف عن طبيعة الردّ، ولا عن زمانه ومكانه، واكتفى الأمين العام للحزب، حسن نصر الله، غير مرّة، بالقول : «إنّ الردّ آتٍ، وبيننا وبينكم الأيّام واللّيالي والميدان»، وقد مرّ على حادثة اغتيال أكثر من عشرة أيام ولم يردّ الحزب بعد على العملية الإسرائيلية.

أمّا في طهران فقد تعهّد المُرشد الأعلى للجمهورية، علي خامنئي، بالردّ على اغتيال هنيّة، ووجّه قيادات الجيش والحرس الثوري ومؤسّسات الدولة للتحضير لذلك، على اعتبار أنّ جريمة الاغتيال اعتداءٌ على سيادة الدولة الإيرانية، فضلاً عن أنّها استهدفت أحد أبرز حلفاء الجمهورية الإيرانية في المنطقة، غير أنّ الردّ الإيراني لم يحصل بعد، على الرغم من مرور أكثر من عشرة أيّام أيضاً على حادثة الاغتيال.

عاشت إسرائيل، والمنطقة كلّها معها، حالةً من الانتظار والترقّب والقلق. أمّا إسرائيل، فيشكّل الانتظار حالة استنزاف لها، لأنّها مُضطرّة إلى العيش بحالة من الاستنفار الكامل في مدار الساعة، وفي كلّ المدن والمؤسّسات، بانتظار معرفة ماهيّة الردّ وكيفية التعامل معه، وهذا يُشكّل نزفاً حقيقياً للدولة ومؤسّساتها، وللمجتمع أيضاً، ولذلك، لا تستطيع أن تبقى في حالة الاستنفار من ناحية، ولا تملك الاستغناء عنها من ناحية ثانية، ما دام أنّه لم يطرأ أيّ تغيير أو تعديل على الوضع. وأمّا المنطقة، ومحيط فلسطين المُحتلّة، سيّما لبنان، فالترقّب والقلق سيّدا الموقف، على اعتبار أنّ الردّ على إسرائيل قد يفتح أبواب المنطقة على حربٍ واسعة ومجنونة، تنخرط فيها دولٌ كثيرة، وهذا ما يُقلّ المشهد، ويجعل أمد الحرب تطول وتتوسّع أكثر.

أمّا إيران وحزب الله، فهما لا يريدان توسّع الحرب، ويعرفان أنّ ذلك سيجعل دولاً أخرى، سيّما الولايات المتّحدة تنخرط فيها دفاعاً عن إسرائيل، وضماناً لأمنها واستمرارها، فضلاً عن أنّ تحوّل المنطقة إلى ميدان حربٍ واسع سيجعل من هذا الميدان بؤرةً تستنزف كلّ القوى والدول المنخرطة في الحرب. ومن ثم، سيخسر بعضها مكتسباتٍ ومنجزاتٍ تحقّقت لها في عقود. وعليه، إيران وحليفها حزب الله يزيدان الردّ بميزان الذرّة، وليس الذهب فحسب، حتّى لا يُعطيا رئيس الحكومة الإسرائيلية ما يريده، وحتّى يحافظا على مكتسباتهما، وحتّى يُبقيا حالة الاستنزاف لإسرائيل، وهي أفضل حالة في هذه المرحلة. غير أنّهما لا يمكنهما تجاهل ما جرى والسكوت عنه، خاصّة أنّه مسّ سيادة الدولة الإيرانية، وضرب أمن الحزب في عمق داره في الضاحية. ومن هنا، فإنّ الردّ عندهما بات محكوماً بسقف استعادة الردع، والحفاظ على التوازن في حالة الحرب، وليس الانتقام لاغتيالي إسماعيل هنيّة وفؤاد شكر، ولذلك ركّز الأمين العام للحزب في أكثر من كلمة له على الردّ الحكيم والعقلاني والمتأنّي.

غير أنّ هذا الردّ قد لا يحصل أبداً، وربّما تأخّره يشي بذلك، ويتوقف على فرصة إنجاز تسوية شاملة في المنطقة، توقف العدوان على غزة، وتُطلق سراح الأسرى، وتعيد إعمار القطاع، وتوقف جميع الجبهات. بهذا المعنى، سيظلّ الردّ مُعلّقاً إلى حين إنجاز التسوية، وبيدو أنّها باتت محلّ رغبة أطراف أساسية، وربّما هذا يُشكّل مخرَجاً وفرصة حقيقية للانتهاء من الوضع القائم حالياً، الذي يُنذر بتوسّع الحرب التي لا يُريدها أحد، حتّى بنيامين نتنياهو، سوى بمقدار ما يُقدّم نفسَه إلى الرأي العام الإسرائيلي بطلاً قد أحرز نصراً، ولو وهمياً، وإلّا، فالمنطقة كلّها تقف على حافة حربٍ حقيقية قد تتحوّل من الأيّام إلى إقليمية وكُبرى.

(كاتب لبناني)

هل تقتل «الواقعيةُ» العمليةَ السياسيةَ في سورية؟

سميرة المسالمة

مع كلّ منعطف جديد في العلاقة التركية مع النظام السوري، يتعيّن على قيادات كيانات المعارضة السورية تجديد مفهومها للحلّ السياسي، أو في الأقلّ خفض توقّعاتها منه، فالواقعية السياسية المطلوبة عليها أن تأخذ في الحسبان ميزانَ القوى، والمصالح الدولية، وتبدّل مواقف الدول، ومصالحَها، في ظلّ مُتغيّرات عالمية، وانهيار محاورَ إقليمية، وبروز تحالفاتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ جديدة، وتفاقُم الصراعات المُسلّحة والحروب، ومنها ما أنتجته الحرب الإسرائيلية على غزّة، وتداعياتها على الدول العربية والإقليمية، ومنها الأراضي السورية، سواء تلك التابعة لسيطرة النظام مع داعميه الروسي والإيراني، أو التابعة لفصائل المعارضة المسلّحة تحت الحماية التركية، أو مناطق إدلب تحت حكم هيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقاً) أو المناطق التي تسيطر عليها الإدارة الذاتية (قوات سوريا الديمقراطية «قسد») تحت الحماية الأميركية.

والواقعية المُستجدّة في التصريحات اليوم تعني، بالضرورة، إعادة فَنّ تسَنيم القرارات الدولية «قيادة المعارضة السورية» النظر في فهمها، أو تمسّكها بحرفية قرار مجلس الأمن 2254 (المُتعلّق بوقف إطلاق النار، والتوصّل إلى تسوية سياسية بقيادة سورية، وفي ظلّ عملية يمتلك السوريون زمامَها، وتُيسّرها الأمم المتحدة)، فما كانت تفهمه المعارضة من الانتقال السياسي، أنّه إنهاءُ عهد الرئيس السوري بشّار الأسد، وفقاً لما جاء في القرار "تشكيل هيئة حكم ذات مصداقية، وتشمل الجميع وغير طائفية، واعتماد مسار صياغة دستور جديد لسورية المستقبل"، لم يعد ممكناً، وأنّ ما يتضمّنه من تفاصيل تنفيذية للعملية السياسية، بقي حبراً على ورق، منذ صدوره عام 2015، ولم يبقَ منه إلا النزر اليسير، وهو ما يسمّى اللجنة الدستورية التي لم يُقرّ النظام شرعيتها أو مشاركته الرسمية فيها. وتركيا، إذ تطلب من «المعارضة» التفاوض الهادف والواقعي مع النظام، فقد سبقتها إلى ذلك منذ عام 2017، عندما صارت أحد أضلاع ثلاثي مسار أستانة إلى جانب روسيا وإيران، وهو المسار الذي عطّل السير في مفاوضات جنيف الأممية، وترك الأبواب مفتوحة على خيارات روسيا وإيران في القضيّة السورية، ومنح النظامَ السوريّ الأدوات اللازمة لاستعادة السيطرة على مساحاتٍ واسعةٍ من سورية التي فقد السيطرة عليها ما بين 2012 و2015. وإذ تُؤكّد تركيا عودتَها للمرّة الثانية إلى خانة الواقعية السياسية، بالتغاطي مع النظام السوري، وترغب في إعادة العلاقات معه، فإنّ ذلك مبنيٌّ على مصالحها الوطنية، ولحلّ مُشكلاتها الحدودية مع الأكراد (بخاصّة «الإدارة الذاتية»)، الذين تتهمهم بإقامة كيان انفصالي عن سورية في حدودها، وتعتبرهم يُهدّدون أمنها، وكانت ترغب في اجتياحهم عسكرياً، وهو ما هدّدت به مرّات، قبل أن تتدخّل روسيا لعقد مصالحات بين الرئيسين التركي أردوغان والسوري بشّار الأسد، تقضي بوضع النظام السوري في مواجهة الأكراد بديلاً عن تركيا، من منطلقي الدفاع عن وحدة الأراضي السورية واستعادة السيطرة على تلك المنطقة، التي تُعدّ منبع الثروة النفطية لسورية.

وفي صعيد داخلي، ترى تركيا أنّ من شأن المصالحة مع النظام أن تُقدّم حلولاً لمشكلة اللاجئين السوريين، التي أصبحت ورقةَ ضغطٍ شعبيٍّ تستخدمها المعارضة التركية في وجه حكومة أردوغان، بتسهيل إعادة أنتشارهم داخل الأراضي السورية، وبما يتوافق مع فكرة حزام شعبي آمن لها على حدودها.

> ترى تركيا أنّ المصالحة مع النظام تُقدّم حلولاً لمشكلة اللاجئين السوريين، التي أصبحت ورقةَ ضغطٍ شعبيٍّ تستخدمها المعارضة التركية في وجه حكومة أردوغان، بتسهيل إعادة أنتشارهم داخل الأراضي السورية، وبما يتوافق مع فكرة حزام شعبي آمن لها على حدودها.

بيد أنّ ذلك كلّه لا يعني، بالضرورة، أن تستغني تركيا عن المعارضة السورية، بشقّيها، السياسي والمُسلّح، فالأولى (المعارضة السياسية) تضعها على طاولة التفاوض الدولي حول القضية السورية، سواء مع روسيا وإيران، أو على طاولة التفاوض الأممي في جنيف، والثانية (المعارضة المسلحة) تُنقّل بها أوراق عملية تفاوضها مع النظام من جهة، ويمكن استخدامها شريكاً في أيّ عملية عسكرية ضدّ الأكراد (قوات سوريا الديمقراطية)، سواء اضطرّت للقيام بها منفردة، أو بالتشارك مع النظام السوري، ما يعني أهمّية المعارضة السورية لتركيا، ليس لقيمتها الذاتية، بل لدورها الوظيفي الذي تريده لها، وسواء تجاوب الأسد مع رغبة أردوغان في عقد اللقاء الثلاثي، أو لم يفعل، فإنّ بقاء مفتاح المعارضة رسالةٌ تركية إلى النظام السوري، بالتوازي مع احتواء المعارضة، وتدريبها وإقليمية ودولية، وبخاصّة في وجه الدول الأوروبية، فالعملية السياسية وفق قرار مجلس الأمن 2254، بكثير من الواقعية، قد ماتت سريريّاً في الأقلّ، منذ تشكيل مسار أستانة الثلاثي في مواجهة مسار جنيف الأممي، ما أدّى إلى انقلاب أدوار الدول تدريجيّاً، وخروجها من ثنائية محوري مناصرة الثورة أو ضدّها، بدءاً بتركيا، وصولاً إلى الدول العربية التي أعادت تطبيعها مع النظام السوري، وإلى دول أوروبية تتذرّع بمشكلة اللاجئين السوريين، وسط صمت أميركي غير مضمون لمصلحة المعارضة السورية، وهو ما يضع الأخيرة قبالة خيار الواقعية التركية التي تريد منها التفاوض الهادف، الذي يُسمح باستعادة مصالح تركيا مع النظام، وبإبقاء المعارضة ورقةَ قوّةٍ بيد تركيا.

لم يتأخر النظام السوري، فيما يبدو، بقراءة ما تريده تركيا منه، وهو يمارس برفضه اللقاء، الذي يجمع رئيسَي الدولتين، فهمَه القانون الدولي، لمنع قونَنة الوجود التركي في سورية، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون قنوات الحوار والتعاون الأمني مفتوحةً على مصراعيها، وإنّ يكون لقاء قادة المعارضة رسالةً تركية إلى النظام السوري، بالتوازي مع احتواء المعارضة، وتدريبها على الانتقال المرحلي في عملية التفاوض، من النديّة مع النظام، إلى معرفة حجمها، ونقاط ضعفها وقوّتها، في مواجهةٍ غير متكافئةٍ من النواحي كلّها. سبق لتركيا أن التقت قادةَ فصائل المعارضة المسلّحة قبيل لقاء أردوغان نظيره الروسي فلاديمير بوتين، وسقوط حلب عام 2016، وقبل انعقاد أولى جلسات مسار أستانة، وكانت نقطة تحوّل في القضية السورية بعمومها، وهو ما قد يجعل من هذا اللقاء الجديد، نقطة علّام جديدةٍ في مُستقبل السوريين المُلبّد بالغيوم.

(كاتبة سورية)

المُترشّح الوحيد في تونس يسابق ظلاله

المهدي مبروك

لم يبقَ ممن أعلنوا نيّتهم تقديم ترشّحاتهم للانتخابات الرئاسية في تونس، المُزمع تنظيمها في 6 أكتوبر/ تشرين الأول المُقبل، سوى عدد يَزيد لم يتجاوز الثلاثة، الرئيس الحالي ومترشحان آخران، بعد أن أعلنت الهيئة العليا للانتخابات مساء السبت الماضي في بيان لها نتيجة الفرز. استقبلت الهيئة العليا للانتخابات منذ أسابيع قليلة ما يفوق مائة مُترشّح، سعى جُلّهم في مارثون استمرّ زهاء شهر، لاستيفاء شروط الترشّح القانونية، التي شنهّا أحد المترشّحين (الصافي سعيد) بالأعمال الشاقّة، وهي العقوبة المصاحبة التي كانت تُسلّط على عتاة المجرمين قبل أن تحذفها جُلّ البلدان من مدوّناتها التشريعية، لانتهاكها الصارخ لحقوق الإنسان. ولا يتضمّن هذا التشبيه مُبالغة، فالواقع يثبت صواب ذلك.

حين سنّ الرئيس قيس سعيّد، منفرداً، دستور 2022، الذي تم يصوّت عليه سوى ما يناهز 20%، أدخل تعديلات هامّة على البنود المُتعلّقة بمنصب رئيس الجمهورية، ونصّ على دينه وجنسيّته لثالث جُدّ، فضلاً عن سنّه. وبهذه التعديلات التي أدخلها مقارنةً بدستور 2014، أقصى بحدّة مُزدوجي الجنسية، والشباب... إلخ. غير أنّ القانون الانتخابي القديم ظلّ ساريا، ولم تتفتّح تفاصيله التي غدت رحلةً في السعير. لقد أوكل رئيس الجمهورية للهيئة العليا للانتخابات، التي عيّن جُلّ أعضائها، مهامّ تشريعية، هي في الأصل من الصلاحيات الحصرية للبرلمان. لذلك، تلقّت الهيئة هذه المهمّة وتزيّدت عليها، واستغلت فراغات تشريعية من أجل أن تُقصي مُترشّحين عديدين بدعوى عدم اكتمال مُلفّاتهم. عدد التزكيات الشعبية التي حدّدتها بعشرة آلاف تزكية، موزّعة بين ما يقارب 160 دائرة انتخابية، فضلاً عن كمّ هائل من الوثائق الإدارية التي يُفترض أن تُوفّرها الدولة لمواطنيها، من دون نسيان بطاقة السجل العدلي، التي كانت وراء إقصاء جُلّ المُترشّحين "الجدّيين"، سواء مستشار الرئيس الأسبق منصف المرزوقي، عماد الدايمي، أو وزير الصحّة في عهد حكومة حركة النهضة، عبد اللطيف المكي، أو وزير الصحّة في آخر عهد الرئيس زين العابدين بن علي، المنذر الزنادي، أو العديد من المترشّحين الآخرين، الذين يقبعون حالياً في السجن، على غرار زعيم حزب التيار الديمقراطي، غازي الشواشي، أو رئيسة الحزب الدستوري الحرّ عبير موسي... إلخ. أعلن المترشح الصافي سعيد، يوم الجمعة الفارط، أنّه انسحب من السباق قبل الأوان، وأنّه لن يُكمل الترشّحات التي أسقطتها الهيئة، وقد مُنحت فترة إمهالٍ بـ48 ساعة. يعلن الرجل أنّه لم يعد قادراً على تحمّل هذا الإذلال كله، خصوصاً أنّ المنافسة بدت غير عادلة، تنتهك مبدأ تكافؤ الفرص انتهاكاً صارخاً لفائدة الرئيس الحالي، الذي تظلّ إمكانات الدولة وموارِدها في ذمّته، وهي الشبهة التي نفاها الرئيس سعيّد. هذا الانسحاب سبقه انسحاب آخر أعلنه المُترشّح نزار الشعري، الذي لاحقته السلطات القضائية بشبهات «شراء التزكيات»، وقد صدر حكمٌ بالسجن في حقّه وحقّ مدير حملته الانتخابية. اعتبر الشعري أنّها أحكامٌ انتقامية، وأنّ القضاء قد طوّع لفائدة إزاحة المُترشّحين الجدّيين، والأمثلة عديدة لانسحابات احتجاجية أخرى، ويقطع النظر عن هذه الانسحابات، تدور شكوكٌ عديدةٌ في شأن هذه الشروط المُجحفة، التي تنشي بفائض استعمال سلطات تقديرية واسعة منافية تماماً لروح الانتخابات التنافسية النزيهة والشفّافة. ويفترض أن يكون الصندوق فيصلاً بين المتسابقين، غير أنّ الوثائق الإدارية العديدة التي تتفنّن البيروقراطية الإدارية في منحها للمواطنين، وقد يصل الأمر إلى رفض تسليمها، خلقت غربالاً أولياً مُتعسّفاً، يُقرّ من تشاء السلطة، أيّ من كان مُنسجماً مع هواها. يقول بعضهم إنّ الرئيس سعيّد اختار منافسيه، وهم الذين لا يُشكّلون خطراً انتخابياً حقيقياً عليه، فقد احتفظ الغربال في النهاية بعدد محدودٍ جدّاً.

عادةً ما يُمثّل هؤلاء المُترشّحون عائلات سياسية، أو أحزاباً، أو فكراً كُبرى تعكس الرأي العام الانتخابي في تعدّده واختلافه، فضلاً عن مزاجه. غير أنّ ذلك لم يحصل مطلقاً هذه المرّة، لعدّة أسباب، لعلّ أهمّها أنّ الأحزاب هُمّشت منذ ألغى الرئيس سعيّد دستور 2014، فضلاً عن التعديلات التي أدخلها على مختلف القوانين الانتخابية، وهي تعديلاتٌ ألغت دور الأحزاب في السباق الانتخابي. فلقد انتقلت البلاد من نظام تنافس القوائم الانتخابية (الحزبية) أو المستقلة، إلى نظام اقتراع على الأفراد. فضلاً عن المواقف الضمنية المُجافية للمنظومة الحزبية وتحميلها أوزار العشرية الفارطة، بحسب الرئيس. أمّا السبب الثاني فهو مرتبط بالإيقافات والملاحقات المُتعدّدة الأشكال لعديد من رموز التيارات السياسية؛ يقبع حالياً عشرات القادة السياسيين، الذين تولّوا قيادة أحزاب مثّلت مشارب مختلفة، فراشد الغنّوشي وعبير موسى وغازي الشواشي وعصام الشابي وغيرهم حرموا المشاركة وهم بمثلون عائلات سياسية عريقة، على غرار الإسلاميين والدستوريين والتيار اليساري... إلخ، من دون اعتبار لعشرات الآخرين من رموز المجتمع المدني والإعلاميين. لذلك، أحجم بعضٌ منهم عن تقديم مُرشّحين (الإسلاميين خصوصاً)، أو عمد إلى الانسحاب، أو اضطر إليه اضطراراً لعدم استيفاء الشروط، وكلّها عوامل حالت دون أن يكون للمُترشّحين للانتخابات الرئاسية تمثيلٌ واضحٌ لتيّارات وعائلات سياسية تقف وراءها.

وأخيراً، لن يدفع مناخ الخوف والرقابة، فضلاً عن التخوين والاتهامات بالمؤامرة، المُترشّحين إلى الإفصاح عن أطروحاتهم ومشاريعهم السياسية، فخلال أيّام قبول الترشّحات تجري محاكمات عديدة وإيقافات مختلفة بتهم تدور حول التآمر على أمن الدولة (قضية جديدة أثيرت منذ أيام قليلة يُتّهم فيها رئيس حركة النهضة راشد الغنّوشي، ورئيس الحكومة السابق يوسف الشاهد، ومديرة سابقة لديوان الرئيس قيس سعيّد، هي نادية عكاشة... إلخ)، كما أعلن من مدينة سوسة القبض على «خلية جوسسة»، تفيد الوقائع الأولى بأنّها تخصّ مجموعة أجانب تعمل في مساعدة المهاجرين وطالبي اللجوء، المقيمين حالياً بتونس، وهم في الأصل قادمون من بلدان جنوب الصحراء. انتهى شوطٌ أول من السباق نحو قصر قرطاج، بعد أن استُبعد ما يناهز مائة مُترشّح، ويقطع النظر عن جدّية بعض من هذه الترشّحات، فإنّ إقصاءهم فيه كثير من الشطط والتزيّد، فضلاً عما يراه بعضٌ من تجاوزات قانونية فُسّرت استاذ القانون الدستوري بن مسعود، ووضعها في ذمّة المُقصيّين من أجل الطعن أمام المحكمة الإدارية، في غياب المحكمة الدستورية، التي لم يَبدُ الرئيس حماسةً لإرسائها، حتّى يُحافظ على سلطات واسعة في تأويل القانون، وتوسيع مشمولاته.

ربمّا لن يجد التونسيون أنفسهم أمام عرض وفير بالمعنى السياسي للكلمة، ستكون اختياراتهم محدودةً جدّاً عدداً وعدّة، لذلك لا يزال الرأي العام مُنقسماً، ثمّة توجّه حالي يدافع عن مبدأ المشاركة حتّى بين خيارات كلّها غير مغرية، في حين يذهب بعضهم الآخر إلى المقاطعة، لسحب المشروعية من الرئيس، والتأثير مرّة أخرى على نسب المشاركة.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

أحد مناصري الرئيس التونسي قيس سعيّد، تونس العاصمة، 25 يوليو 2024 (فتحي بلعيد/ فرانس برس)

غزّة ألماً في العنف الإسرائيلي

معن البياري

يقعُد الشيطان القرفصاء، في العقل الإسرائيلي، على ما كتب غسّان كنفاني، وأسوأ ما في الأفعال الشيطانية أنك، غالباً، لا تقع على أغراض متعيّنة لها، فالشرُّ مقصودٌ لذاته، ويحدُث أن تُتعب نفسَك في تعليل مسلكٍ شيطانيٍّ ما، فتلقى حزمةً من أسبابٍ له. لكنك، في الوقت نفسه، ترتبك، عندما ترى أن في وُسع مرتكب هذا الفعل أن يَحوز ما يريد بغير تلك الشيطانيّة في الذي يقترفه. ... شيءٌ من هذا قد يتسرّب إلى أفهامك، وأنت تحاول أن تقع على تفسير كل جريمة حرب يرتكبها جيش العدوان، بدعم وإسنادٍ من المستوى السياسي، بل يطلب منه أحياناً، في مركز إيواء، أو مدرسةٍ أو بين خيام نازحين في أيٍّ من مطارح قطاع غزّة، كما المذبحة التي أزهق فيها هذا الجيش، أول من أمس السبت، أرواح أزيد من مائة فلسطينيٍّ في مدرسةٍ في حي الدرج في غزّة. وينسحب سؤالٌ عما أراده من هذه الجريمة التي استخدَم فيها أسلحة أميركية حارقة على الذي أراده من مثيلاتٍ لها سابقات، في أتون محرقة الإبادة التي يشنّها في القطاع المنكوب منذ عشرة أشهر، في مواضي خانيونس وفي النصيرات والمغازي ورفح و... إلخ.

لا تكفي كذبته الرتيبة عن وجود مسلحين من «حماس» بين الأطفال والشبّان والشيوخ والنساء، بين الجرحى والجوعى، ليس فقط لأنه لم يُشهد، في أيٍّ من مرّات جرائمه هذه، شاهداً على صحّة ادّعاءاته السوداء، بل لأن هذا في الأصل ليس مسوّغاً لقتل الناس كيفما اتفق بالقذائف والقنابل العمياء. وإذا قلنا إن نتنياهو وأمثاله الفاشيين يريدون عقاباً جماعياً لأهل غزّة على احتضانهم من صنعوا واقعة 7 أكتوبر، فإن سؤالاً سيظهر عن أي مدىً سيبلُغه هذا العقاب، وما إذا كان له سقفٌ، أو عدد للغزّيين الذين يحسُن أن يعاقبوا. أما إذا قبِل إن مشروع التهجير ما زال مقيماً في الدماغ الإسرائيلي، فإن مقداراً من الارتياك ليس قليلاً سيتضمّنه السؤال عن التهجير إلى أي أرض، فالقطاع المحاصَر مغلقٌ، والفرار منه مستحيل، وليس في وسع الغزّي أن ينقذ نفسَه من الإبادة بالهروب.

تأخذُك بعض الحيرة بشأن مقاصد العدوانية القصوى في ارتكاب مذبحة حي الدرج ومثيلاتها إلى الذي أوجزه عصام سخنيني، في كتابه «الجريمة المقدّسة ... الإبادة الجماعية من أيديولوجيا الكتاب العبري إلى المشروع الصهيوني» (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، عن مرجعياتٍ أولى في الذهن الإسرائيلي، عن العمالقة وتعاليم يهوه في ضربهم وإبادتهم. يسعفك الذي يشرّحه الباحث الراحل في تفسير شهوة القتل التي بلا حدود، تجاه الفلسطيني، وكل عدو، والتي تتوطّن في تضاعيف المخ الإسرائيلي الذي يرى الوحشية ضرورة، وامتثالاً لـ«ربّ الجنود». وإذا كان تفسير كهذا، بتفاصيله ومضامينه، يصلح، إلى حد بعيد، في تظهير الأسباب وراء أفعال الطرد والتهجير والقتل والفتك لإقامة دولة إسرائيل في نكبة 1948، وفي نكبات متتالية تمثلت في الاستيطان النشط وفي جولاتٍ لم تتوقف من المذابح والمجازر في الضفة الغربية وقطاع غزّة، فالأرجح أن تعتمده في تفسير الجريمة اليومية، منذ 7 أكتوبر، والموصولة بمذابح في خانيونس ورفح وغيرهما في الاحتلال الأول (والقصير) للقطاع في 1956. ولكن تلك الأسباب التي تُردّ إلى يهوه وتعاليمه مقرونةٌ، في هذه المرّة، بعقاب كان القرار أن يكون مروّعاً، لأن العدو الفلسطيني تجرّأ على سكينة اليهودي وأمنه وأمانه، في صبيحة ذلك السبت الذي حدث فيه ما أسرف نتنياهو وأركان الدعاية في أجهزته في مماثلتها بالهولوكست وبـ«11 سبتمبر». مع التسليم بأي تفسير قد ينفع في شرح الذي يُراد شرحه، يبقى السؤال مُشرّعاً عمّ يريده نتنياهو من حربٍ لم يعُد لاستمرارها سبب عسكري مقنع، وعمّ يريده في غزّة عموماً، وهو الذي لم يحسم وضعاً للقطاع في أي حال انتهت الحرب عليه. ... لقد تحمّس بن غوريون لاحتلال غزّة وضمّها في 1956، غير أنه، بعد أقلّ من عامين، أدرك عدم الحاجة إليها ... كتب في مذكّراته في 1957 «غزّة، بحدّ ذاتها، تمثل ألماً في العنق في جميع الأحوال، أكانت تحت الحكم الإسرائيلي، أم حكم الأمم المتحدة، أم تحت حكم مشترك». واستطرد «غزّة لعنة وخطر في جميع الأحوال، وعلينا ألّا نعرّض، من أجلها، أمننا للخطر في المستقبل، أن نصبح منبوذين في العالم». وزمن بن غوريون غير زمن نتنياهو، لكن الألم الذي تمثّله غزّة في العنق الإسرائيلي ما زال باقياً، بدليل أنك لا تُصادف حالاً لدى نتنياهو بشأنها، ولا تجد تفسيراً لارتكاب جريمة مدرسة حي الدرج (وغيرها) غير اتّباع نتنياهو تعاليم يهوه.

ما وراء فضائح الأولمبياد المصرية

سامح راشد

حصدت البعثة الأولمبية المصرية في أولمبياد باريس حزمةً فضائحَ تتجاوز الهزائم المتعدّدة، والفوز بميداليات ثلاث فقط، لأكبر بعثة رياضية في تاريخ مصر (164 لاعباً)، وهي الأكبر بين البعثات العربية، وتتولاها البعثة المغربية بـ64 لاعباً. تنوّعت مثالب المشاركة المصرية في باريس، لكن ثمّة مشتركات جمعت بين الفرق المصرية، بدءاً بغياب معايير موضوعية لاختيار العناصر المشاركة، وتدنّي مستوى الأداء الفني إلى حدّ أنّ الفرق كلّها تلقّت هزائم مُخزية ولم تحقّق نتائج ذاتَ قيمة. حتّى الفرق ذات السجل التاريخي المُشرّف، مثل كرة اليد. جمع أيضاً بين أفراد البعثة المصرية، ضعف اللياقة البدنية ضعفاً مُوسفاً، ما انعكس بوضوح على تماسك الأداء، والتركيز الذهني، ومن ثم التوافق العضلي العصبي. وتجلّى هذا العامل في تراجع أداء الفرق الجماعية في أكثر الأوقات من جميع مبارياتها، فضلاً عن إصابة الحَكم في إحدى مسابقات الرماية، وسقوط فارسة من فوق الجواد في منافسات الفروسية.

ومن أهمّ القواسم المشتركة بين أفراد البعثة الرياضية المصرية في أولمبياد باريس 2024، افتقاد الانضباط الأخلاقي والروح الرياضية، التي يُفترض أن تُميّز الرياضيين في المستويات كلّها، ففي الألعاب الجماعية كانت العصبية هي الغالبة على تعاطي اللاعبين مع قرارات الحَكم، إضافةً إلى الاندفاع وعدم التحكّم الانفعالي في الأوقات الصعبة من المباريات. وكان هذا وحده سبباً في خسارة مباريات مُحسومةٍ بشأنها، ولا تجد تفسيراً لارتكاب جريمة مدرسة حي الدرج (وغيرها) غير اتّباع نتنياهو تعاليم يهوه.

ومن أبرز مظاهر الافتقاد إلى الأخلاق الرياضية، ما حدث في ألعاب القوى، حين تعمّد العدّاء المغربي، سفيان البقالي، الوقوف في طريق منافسه الأميركي، كونور مكنتاير، في سباق 3000 متر موانع، ما أدّى إلى سقوط الأخير، وحرمانه من التأهّل إلى نهائي السباق، وهو ما اعتبره مكنتاير "غير رياضي على الإطلاق". وفي الملاكمة، تعمّد الملاكم المصري، عبد الرحمن وردان، ضرب منافسه الأوكراني، أوليكساندر خيريستوف، بعد انتهاء الجولة الثالثة، ما أدّى إلى إصابته بكدمة في العين، وتسبّب في إيقاف وردان عن المشاركة في الأولمبياد، وهو ما لم يحدث من قبل في تاريخ الأولمبياد.

وفي كرة اليد، تعمّد لاعب المنتخب المصري، يوسف حسن، ضرب لاعب المنتخب الفرنسي، ديكو كولوسينيو، بعد صافرة نهاية المباراة، ما أدّ

قراءة إسرائيلية في تبعات اختيار السنوار

أحمد الجندي

حين يُطالع القارئ الصحافة الإسرائيلية في تناولها خلافة يحيى السنوار الشهيد إسماعيل هنيّة، سيلحظ حجم التناقض الكبير الظاهر في مقالات الكُتّاب والمحلّلين في تقييم الرئيس الجديد للمكتب السياسي لحركة حماس، وهو تناقض يضع الإسرائيليين، في النهاية، في حيرةٍ عند الإجابة عن سؤال إن كان السنوار شخصاً مُتشدّداً، ومتصلّباً في مواقفه، أو معتدلاً وفق المفهوم الإسرائيلي.

كان اختيار السنوار مفاجأة، لم يتوقّعها أيّ إسرائيلي، وحتّى الأسماء التي نشرتها الصحافة الإسرائيلية للمُرشّحين لخلافة هنيّة لم تتضمّن اسمه. وعلى الأغلب كان ذلك السبب الذي أدى إلى حالة ارتباك قادت إلى تناقضات بين الكُتّاب والمحلّلين، بل وفي أحيان إلى تناقض لدى الكاتب الواحد، وعدم تماسك منطق مقالاتٍ كثيرة، ويتعلّق هذا التناقض بالأساس بمسألتين: الدولة التي ضغطت نحو هذا الاختيار، ومدى تشدّد رئيس الحركة الجديد.

ذهب كبير الباحثين في معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، كوبي ميخائيل، إلى أنّ مصر هي من دفعت من خلف الستار نحو اختيار السنوار خليفة لهنيّة، لأنّ هنيّة كان صاحب الموقف الأكثر تشدّداً في موضوع الصفقة، مقارنةً بموقف السنوار البراغماتي، الذي كان يرتكز أكثر على دور مصر، ولم يكن على توافق مع هنيّة، الذي راهن أكثر على دولة قطر. وهذا يعني أمرين، حسب رؤية الكاتب، أحدهما أنّ مصر كان لها دور مُؤثّر في من كان حتّى الأمس القريب قائداً للحركة في قطاع غزّة فحسب، وبالتالي فتأثيرها يزداد أكثر الآن، خصوصاً أنهم الوحيدون الذين يتواصلون مع السنوار، ما يعني، حسب لفظه، رفع مستوى التوقّعات من أجل إنجاز صفقة الأسرى، والتوصّل إلى وقف إطلاق النار. والأمر الآخر أنّ قطر، بهذا المعنى، تدعم الجناح المُتشدّد في الحركة، ومن ثمّ فإنّ دورها في إتمام الصفقة سيقل كثيراً، علاوة على ما ردّده الكاتب وتصرُّ عليه الصحافة الإسرائيلية من دون ملل، عن وجود توتّر في العلاقة بين قيادتي «حماس» في الداخل والخارج. لكن ميخائيل يناقض نفسه مرّتَين، مرّةً حين يتحدّث عن أنّ قيادة الداخل هي التي كانت تُحدّد السقف، وتتخذ القرارات، وهو ما يدفع إلى أن نسأل كيف يتّسق توقّع الكاتب باحتمالية أكبر للتوصّل إلى صفقة مع السنوار «البراغماتي»، مع أنّه من كان يتحكّم في المفاوضات، «التي تشدّدت فيها الحركة»، سابقاً ويُحدّد سقفها. ومرّة أخرى، حين يتناول عملية اختيار السنوار ضمن صراع داخلي في الحركة بين جناحَين أحدهما مُتشدّد، والآخر براغماتي، لكنّه في الوقت نفسه يكتب أنّ الاختيار نوع من الاعتراف والتقدير لقيادة الحركة في القطاع، وقيادتها للنضال، والثمن الباهظ الذي دفعته، وهذا ينفي وجود الصراع أصلاً، خصوصاً أنّ الاختيار كان بالإجماع، كما أكّدت الحركة.

> صورة السنوار الأكثر مرونةً في كتابات إسرائيلية، قابلتها أخرى متشدّدةٌ مُعتمَدة بين الإسرائيليين منذ «طوفان الأقصى»

> يظن إسرائيليون أن غاية أميركا من مقترح وقف إطلاق النار تبريد موقف إيران وحزب الله بشأن ردهم المتوقع على إسرائيل

ما طرحه ميخائيل عن براغماتية السنوار ومرونته، مقابل تشدّد هنيّة، تقاطع مع حديث الصحافي في «يديعوت أحرونوت»، إيتامار أيخنر، الذي اعتبر اختيار السنوار الفرصةَ لإسرائيل من أجل الدفع نحو صفقة الأسرى، وأنّ هنيّة مثّل عقبةً نتيجة تشدّده في رفضها سرّاً، بينما كان يسعى للظهور في صورة القائد المُعتدل قبالة الولايات المتّحدة وقطر، أما السنوار فكان يرغب في إتمامها، غير أنّه في الوقت الحالي لن يتعجّل في الذهاب إليها، وسينتظر كيف سيكون الردُّ الإيراني، لأنّه يرغب في أن تتوحّد الساحات.

صورة السنوار الأكثر مرونةً في هذه الكتابات وغيرها قابلتها أخرى متشدّدةٌ هي المُعتمَدة بين الإسرائيليين، والأكثر رواجاً في الإعلام الإسرائيلي، وفي تصريحات السياسيين، منذ بدأت عملية طوفان الأقصى. في هذا الإطار، يرى العقيد ألون أفياتار، المتخصّص في الشأن الفلسطيني، أنّ الطبيعة المُتشدّدة للسنوار تجعل منه المُتصرّف الوحيد في ما يخصّ الحركة كلّها، وسياستها وإدارة الحرب، وقضية الأسرى، ومستقبل القطاع، وهذا كلّه يعني هيمنةً وتأثيراً إيرانيين، لا مصريين ولا قطريين المرّة هذه، عبر سيطرة جناح الصقور الديني العسكري، في مُقابل تراجع تامٍّ للاعتدال والبراغماتية السياسية.

في هذا المسار ذاته، تحدّث الباحث في شؤون الشرق الأوسط، عيدو زلكوفيتش، إلى صحيفة غلوبس، أنّ هذا الاختيار يُظهر التزام حركة حماس الخطّ الجهادي أيديولوجيا مركزيةً لديها، فهو اختيار يعني أنّ من غير الممكن التوصّل معها إلى أي اتّفاق سياسي، وهذا يفرض على المستوى السياسي في إسرائيل وقف أيّ تعامل سياسيٍّ مع السلطة الفلسطينية، إذا قرّرت تنفيذ تفاهمات بكّين بين الفلسطينيين أخيراً، لأنّ السلطة، إن فعلت، تكون قد أعطت بذلك شرعيةً سياسيةً للسنوار وحركته، وهو أمرٌ لا يجب أن تقبله إسرائيل.

ثمّة تناقض آخر في تقييم المحلّلين لطبيعة علاقة كلّ من هنيّة والسنوار بإيران؛ فبينما تحدّث ميخائيل عن ميل السنوار نحو مصر، وتعامله مع إيران بوصفها أداةً ووسيلةً للمقاومةِ لا أكثر، رأى زلكوفيتش أنّ اختيار السنوار لم يكن ليحدث لولا أنّه مُرشّح طهران في الحركة، لأنّ طبيعة شخصيته تُسهّل عليها تحقيق مصالحها المناهضة لإسرائيل في قطاع غزّة. في السياق ذاته، سار مقال الصحافي الإسرائيلي المُخضرَم، إيهود يعاري، فعدّ اختيار السنوار انتصاراً لمعسكر إيران، لكنّه في الوقت نفسه اعتبر اختياره أمراً رمزياً فحسب. وهذا أيضاً لا يخلو من تناقض واضح، لأنّ تفسير يعاري اختيار السنوار انتصاراً لمعسكر مُؤيّدي إيران في الحركة يعني أن الاختيار قام على أساس تقوية الارتباط بإيران، وتأكيد انضمام حركة حماس إلى هذا المحور، وهذا يتعارض تماماً مع كون الاختيار رمزياً كما ذهب.

في سياق الرمزية نفسها، اعتبرت المُتخصّصة في الشؤون العربية في موقع القناة 12، سبير ليفكين، أنّ الاختيار كان مفاجأةً كبيرةً قصدت «حماس» بها تحويل قائدها في غزّة ليصبح الرجل الأقوى في الحركة، والتعبير عن درجة عالية من الثقة به، علاوةً على أنّ اختياره يعيد قوّتها في القطاع، وينقل رسالةً لإسرائيل، مفادها أنّ قيادة الحركة ما زالت قويةً، ومن هذا المنطلق تُفهَم هذه الرمزية.

ما يلاحظ في الكتابات الإسرائيلية كلّها تصويرها ما حدث في سياق الصراع الداخلي في الحركة، فتجنّب اختيار خالد مشعل، صاحب الخبرة الكبيرة، حسب إيهود يعاري، جاء نتيجةَ اعتراض إيران وحزب الله، بل ورفض مُؤيّدي السنوار. ومن ثمّ عدّ يعاري هذا الاختيار حلّاً توافقياً ناتجاً من عدم استطاعة الحركة إجراء الانتخابات، لأنّ الانتخابات السرّية كانت تحتاج أشهراً من أجل تصويت أعضاء الحركة في غزّة والضفّة وفي الدول المختلفة، وحتّى في السجون الإسرائيلية.

تقود نظرة شاملة إلى هذه التناقضات، إلى أمر واحد مشترك بين المقالات جميعاً، أنّ عملية توزيع تهمة «الأكثر تشدّداً»، بين هنيّة والسنوار، تعني إلقاء الاتهام مباشرة على حركة حماس، باعتبارها المتعنّتة في الحالتين، في التوصل إلى صفقة تبادل الأسرى ووقف إطلاق النار، وتجاهل تعنّت إسرائيل الدائم، ورفضها الطروحات كلّها، التي صاغتها بنفسها مع الولايات المتّحدة، وهو ما فعله الصحافي في صحيفة معاريف، بن كسبيت، حين علّق على بيان الخارجية التركية، الذي طالب بممارسة الضغوط على إسرائيل من أجل التوصّل إلى وقف إطلاق النار، بقوله إنّ البيان تجاهل الحاجة لممارسة الضغوط على حركة حماس أيضاً.

وعلى الرغم من معرفة بن كسبيت، وهو أحد أكبر الصحافيين المناوئين لبنيامين نتنياهو، والغالبية العظمى من الإسرائيليين وفي مُقدّمهم أهالي الأسرى، أنّ نتنياهو وحكومته هم من يرفضون عقد أيّ اتّفاق، وأنّ المُقترَح الأميركي المصري القطري المشترك، المطروح أخيراً، الذي يدعو الطرفَين إلى التباحث من أجل جسر الثغرات، لن يُوصل، في النهاية، إلى أيّ اتّفاق، وأن هدف الولايات المتّحدة من الوقوف خلفه منح مزيد من الوقت لإسرائيل، وتبريد موقف إيران وحزب الله بشأن ردّهم المتوقّع على الجرائم الإسرائيلية بحقهما، فإنّ ذلك كلّه لم يمنع بن كسبيت، وغيره، من المطالبة بممارسة الضغوط على حركة حماس، وكأنّها من يجب عليها تقديم التنازلات دائماً. وهنا تحديداً يأتي تخوّف قطاع واسع من الإسرائيليين من وجود السنوار رئيساً للحركة، لأنّ ذلك يعني، حسب اعتقادهم، أنّ القيادة الجديدة ستُظهر قدراً أكبر من الصلابة في المفاوضات، كذلك فإنّه يعكس تماسكَ المقاومةِ في غزّة وصمودَها، والتأكيد أنّ التخلّص منها هو أقرب إلى المستحيل.

(كاتب مصري في إسطنبول)

العفن وشعب السوشيال ميديا... والقابلية للاستعمار

رزان شوامرة

قبل ما يقارب العامَين، التقيت مصادفةً برجلٍ ليبيّ يعمل في صيانة الكهرباء في الجامعة، سألني: من أين أنتِ، وماذا تدرسين؟ فقلت: أنا فلسطينية أدرس العلاقات الاجتماعية. ثمّ سألني: هل تعرفين مالك بن نبي؟ فقلت: نعم، لكني لم أقرأ له. فردّ: إذاً، كيف ستتحرَّر فلسطين؟ وكيف تدرسين العلاقات الدولية؟ وهزّ رأسه تعبيراً عن حزن وعتب شديدَين. وتابع: لو دُرّس ابن نبي في الجامعات العربية لما وصلنا إلى هذا الحال. بعدها، أحسستُ بنقص في معرفتي، وسألت نفسي: هل حقّاً عدم قراءتنا ما كتبه ابن نبي السبب فيما نحن فيه من «عَفَن»؟

بحثت عن مالك بن نبي وقتها، ولم تكن هناك فرصةٌ لقراءة أي ممّا كتبه إلى أن جاء السابع من أكتوبر (2023). أعدت البحث، ولفت نظري أحد عناوين كتبه؛ «العَفَن». جذبني الكتاب منذ البداية، فأنا، ونحن، وابن نبي، نتشابه في العيش في أصعب حقبة تاريخية لشعب يواجه الاستعمار. تساءل ابن نبي قبل قرن، وأتساءل أنا اليوم، عن أسباب الولادة في مكان (الجزائر/ فلسطين) نواجه فيه وحوش الاستعمار والقابلية للاستعمار.

هجوم كثير من مُدّعي الثقافة العرب والفلسطينيين على المقاومة الفلسطينية، واغتيال إسماعيل هنيّة، والعَفَن الذي صعد في السطح، والشماتة باغتياله... ذلك كلّه دفعني إلى أن أكتب هذه السطور، فكما حال ابن نبي في كتابه «العَفَن»، الذي أدان فيه أولئك المُثقّفين الجزائريين، وغيرهم، من فصيلة القابلين للاستعمار، أرمي كلماتي هذه شهادَة ازدراءٍ. أرميها في وجوه شريحة العَفَن الفلسطينية والعربية، مُدّعي الثقافة، الذين امتنعوا مُتعمّدين عن ممارسة دور تعبوي ووطني خلال الحرب، ولم يُشكّلوا حاضنةً فكريةً للعمل المقاوم في غزّة، ولم يتوقّفوا لحظةً عن مهاجمة المقاومة، وفتحوا الأبواب أمام المجتمع القابل للاستعمار، لمهاجمة شبّانٍ يمارسون عمل الفداء بجسارة تفوّقهم، وتُفوّق تاريخهم. لا أتحدّث عمّن قدّم نقداً بنّاءً، فهناك كُثرٌ كتبوا، وتعلّمنا منهم مسيرة الكفاح المسلّح الفلسطيني، وانعكاساته إيجاباً وسلباً. أنا أتحدّث معك أنت. نعم أنت، أنت الذي تقرأ الآن وتشعر بأنّ هذه السطور مُوجَّهة إليك، لأنّ العَفَن فيك، ومنك رائحتُه تفوح.

يتطابق وصف ابن نبي المجتمع الجزائري في حقبة الاستعمار، خصوصاً الفترة 1932 – 1940، بشكل كبير، إن لم يكن كلّياً، مع ما آلت إليه شريحةٌ من المجتمع الفلسطيني اليوم، التي أسمّيها «مجتمع العَفَن». فكان في الجزائر «نوعان من الأهالي: نوع الخونة الواضحين، وهو صنف يقتات من أموال الاستعمار ومن ازدراء الشعب، ثمّ صنف (الخونة المُترَفين)، الذين يعيشون من أموال الشعب باستغلال جهله». في فلسطين، ما زال الخائن المُترَف الذي يرى نفسه بطلاً حقيقياً يأخذ شرعية وجوده من تاريخ عَفا عليه الزمن، ولم يكن جزءاً منه أصلاً، ويتقاسم هؤلاء جزءاً كبيراً من العَفَن مع مُدّعي الثقافة، ومع «شعب» السوشيال ميديا، من الفصيلة ذاتها. لم يتوانَ مُجتمع العَفَن هذا من الهجوم المتواصل على المقاومة وقاداتها وشبابها، وشتمهم واتهامهم بالخيانة وبتصفية القضية الفلسطينية، لا بل وصل الأمر إلى النيْل من أعراضهم. ينشر أحد مُثقّفي العَفَن، قبل أيّام، مقالاً يتحدّث فيه عن أنّ حركة حماس لا تُمثّل المقاومة الفلسطينية. موضوعياً، وسؤال مُوجَّه إليه: هل تُمثّلها أنت جزءاً أصيلاً من مجتمع العَفَن؟ أم يمثّلها الخونة المُترَفون؟

وجود الفلسطيني في كيانات جغرافية منفصلة أوجد أشخاصاً قابلين للعَفَن ومنتجين له، ونتج عن ذلك أيضاً عفونة تجوب فلسطين والأقطار العربية. العَفَن الأول عفن المُثقّف الفلسطيني، الذي يبدأ مقالاته ومنشوراته بـ«المدني الإسرائيلي»، و«إنسانية المستوطن». منذ بداية الحرب، روّج هؤلاء لإنسانية الإسرائيلي أكثر من الإسرائيليين أنفسهم، التي تفوق إنسانية حامل السلاح الفلسطيني، وكأنّهم يتبرّؤون من أي عمل مُقاوِم، وبالرغم من أنّهم يدركون أنّ إرضاء المُستعمِر غايةٌ لا تدرك، فإنّ جُلّ كتاباتهم بدأت بالمدني الإسرائيلي، ويليه الفلسطيني، وبذلك يتخطّى الإسرائيلي في مدنيّته، وإنسانيّته، الفلسطيني. لو أنّهم فعلاً مُثقّفون، وفلسطينيون حقّاً، لوضعوا إطاراً فكرياً ونضالياً يحمي المقاومة الفلسطينية من الهجوم الإسرائيلي والغربي علينا جميعاً. ولو تجادلنا في أحداث 7 أكتوبر، فلم تتخطَّ العملية مستوطنات غلاف غزّة، أي إنّ ما قامت به المقاومة لم يكن ضدّ مدني واحد، فالمستوطن تسقط عنه، وفقاً للقانون الدولي، صفة المدنية، لمُجرّد أنّه يعيش في مستوطنة. لقد ارتأى هؤلاء أنّ أولويتهم هي الغوص في مستنقع من الوحل والانحطاط الوطني، بعنوان الإنسانية، قابلين للاستعمار ومروّجين له فضيلةً. ما الفرق بين خطابات بنيامين نتنياهو وإيتمار بن غفير وبتسلئيل سموتريتش، وهؤلاء؟... تأسرل هؤلاء إلى درجة أنّ الاستعمار ذاته يتعجّب منهم، ولا أتعجب إن خاف نتنياهو على منصبه من هؤلاء (مجتمع العَفَن)، فسوف يُشكّلون خطراً عليه في الانتخابات القادمة، منافسين أقوياء.

> تمثّل وعي أهل مجدل شمس بأهمّية الوحدة في الحرب، بأنّهم لم يدخلوا في حوارات مجتمع العفن بتحميل حزب الله أو المقاومة مسؤولية استشهاد أطفالهم

> اشترك مثقف السلطة مع مثقف الاندماج في قبول الاستعمار من جهة، وتحميل «حماس» مسؤولية الإبادة من جهة أخرى

العَفَن الآخر هو عفن مثقّف السلطة، سواء في فلسطين أو في الدول العربية المجاورة، وهو من ضمن النُخبَة المُستفيدة من الاستعمار، القابلة لوجوده جارَ سلام. منذ بداية الحرب، اشترك مُثقّف السلطة مع مُثقّف الاندماج في قبول الاستعمار من جهة، والهجوم على المقاومة، وفي مقدمتها حركة حماس، واتهامها بالإجرام، وتحميلها مسؤولية الإبادة، من جهة أخرى. لم يكن نقداً لـ«حماس» وقياداتها، ولا للمقاومة وخياراتها، بل كانت عمليةَ تعبئةٍ مُوجّهةٍ ضدّ المقاومة، أي إنّها عمل لو كانت إسرائيل لتفعله لما نجحت كما نجحوا. لقد كانت التعبئة ضدّ المقاومة تسير في اتجاهَين متقاطعَين في الهدف متوازيَين في التوقيت: الأول تعبئة إسرائيل العالم الغربي، وحشد الدعم الدولي لقتل أكبر عدد ممكن منّا، والثاني تعبئة مجتمع العَفَن الفلسطيني، وحشد أكثر الأصوات قذارةً في المجتمع ضدّ المقاومة وأبنائهم ونسائهم، لتبرير جرائم القتل الإسرائيلية. كانت اهتمامات مالك بن نبي تنصبّ على أهمّية الثقافة والمثقّفين، ووظيفتهم المجتمعية، خاصّة في ظلّ الاستعمار. ماذا فعلت شريحة العَفَن الفلسطينية تجاه المجتمع خلال حرب الإبادة؟... تقسيم المُقسَّم؛ المجتمع.

فتح الهجوم على «حماس»، خصوصاً، الباب لانقسام جديد في البيئة المجتمعية الفلسطينية المُضطربة أصلاً، فلدينا اليوم مُجتمعٌ يحتضن المقاومة العسكرية، رغم القتل والدمار، سواء في غزّة أو في مخيّمات الضفّة الغربية، ومجتمع العَفَن الذي طفى على السطح، الذي ينبذ العمل المقاوم، ويُسيء إليه، ويُحقّر قياداته وشبابه. لم يخرجنا حجم الدمار والقتل من عصر التفاهة، وتشكّل عِوَض ذلك مجتمع العَفَن. وسواء تعمّد من هاجم وكتب الوصول إلى هذه النتيجة أم لا، فهم يتحمّلون مسؤوليةً تاريخيةً كاملة.

أخيراً، نُشرت فيديوهات من مدينة طولكرم، يحمل فيها الفلسطينيون على أكتافهم قائد كتيبة طولكرم أبو شجاع، رغم تدمير إسرائيل المخيم وبنيته التحتية، ومحاصرته، وقطع الماء والكهرباء عنه، لاحتضانه للكتيبة. وكذلك الأمر في مخيّم جنين، الذي شهد مقاومةً ومحاكمَ ثوريةً في الشوارع، وأعطى صورةً لما تعنيه الحاضنة الشعبية، ووصل الأمر إلى قتل الأخ أخاه العميل، الذي سلّم المقاومين في كتيبة جنين. ولن تكون غزّة أقلّ احتضاناً للمقاومة، فستنتشر صورة واحدة لغزّة ما بعد الحرب؛ تقبيل رؤوس المقاومين، وهذا ما اعتدنا عليه من غزّة، ولن يتغيّر برغم تحشيد مجتمع العَفَن. والمثال الأكثر لمعاناً اليوم، هو موقف أهل مجدل شمس، ووعيهم بأهمّية الوحدة في الحرب، فلم يدخلوا في حوارات مجتمع العَفَن بتحميل حزب الله أو المقاومة الفلسطينية مسؤوليةَ استشهاد أطفالهم. من الواضح أنّه على من يدّعي أنّه مُثقّف فلسطيني ومُؤثّر، وكتب عشرات المقالات منذ بداية الحرب، والآلاف المؤلفة من المنشورات، أن يتعلّم من الشعوب الحرّة وليس العكس.

في شرائح العَفَن، لا تتفاجأ بالنفاق، إذ يدعمون ويتفاعلون مع صور شهداء كتيبتَي جنين وطولكرم، ومع من يقومون بعملية استشهادية في الضفّة، لكن، لا يروقهم العمل المقاوم القادم من غزّة. والمفارقة الأخرى أنّ الكُتّاب الفلسطينيين الذين هاجموا «حماس» منذ 7 أكتوبر لم يكن لديهم الموقف نفسه من المجموعات المسلّحة التي ظهرت في الضفّة الغربية. وهذا يدعو إلى التساؤل ما إذا كان هجومهم على «حماس» نابعاً من الاختلاف الأيديولوجي؟ وحتّى لو افترضنا ذلك، هل هذا الاختلاف يعطيك شرعيةَ التماهي مع نتنياهو وبن غفير؟ أو التعبئة ضدّ «حماس»، لأنّها لا تعترف بإسرائيل، لا في حدود الدولة ولا الدولتَين، وبالتالي يصير الاستعمار «فضيلةً» تفوق العمل المقاوم والشهيد؟... لقد تماهوا تماماً مع الصهيونية، فكما يقول بن نبي في وصفه الجاليات العربية في فرنسا، لقد «كانت الجماعة الجزائرية، الأقذرَ والأكثر خسّةً».

سأل بن نبي نفسه، كيف السبيل إلى إفهام الأهالي أنّ هذا هو جوهر الاستعمار، الذي يحطُّ من الإنسان ذي القيمة إلى أبعد حدّ، حتّى يُفقده الشعور بقيمته، وهذا هو هدفه؟... الإجابة أنّ مجتمع العَفَن هذا لا يمكن إفهامه، فالغوص في العَفَن لا يُكلّف شيئاً، أمّا الكرامة فلها أثمان. أعترف بأنّني لستُ بشجاعة مالك بن نبي لأكتب أسماءكم صراحةً، ولكنّني حفظتها، وسجّلتها في مُذكّراتي، وطبعت مقالاتكم ومنشوراتكم، لتكون شاهداً تاريخياً عليكم. وسأعلم الجيل القادم من كنتم، ومن أنتم، وماذا فعلتم خلال أقسى الحروب علينا. فالتاريخ لا ينسى أحداً، سواء كنتم مُثقّفين، أو قيادات، أو أفراداً. أمّا هنيّة، فقد نال شرف الشهادة، بعد عشرة أشهر من الإبادة، ليميّز الله بها وبه الخبيث من الطيب، والعَفَن من الطهارة. ولو قارنّا بين الصهاينة، الذين وزّعوا الحلوى احتفالاً باستشهاده، لوجدنا أنّكم هم، صهاينةٌ، وخونةٌ، بلسان عربي ولهجة فلسطينية. والخيانة ليست وجهةَ نظر، فكلُّ من يُعبّئ ضدّ المقاومة هو خائن ولا يستحقّ إلا الازدراء.

هذه رسالة لك أنت. نعم، لك. أنت من تقرأ الآن وتشعر بأنّك المقصود، لتعيش وتموت في العَفَن، وليحيا الشهيدُ فوق أعماركم أعماراً.

(باحثة فلسطينية)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads